عـــزاء الفلسفة لبويثيوس

دكتور عبد الغفار مكاوى

أنا الذى كنت أنظم الأشعار بوجدان مبتهج بالحماس ،

أجدنى اليوم مضطرا الى الشجو الحزين. هكذا تأمرنى ربات الفن المعذبات ،

وتدفع العبرات الى عينى بغنائها الباكى .

الرعب لم يستطع على الأقل أن ينتصر عليها ،

فجاءت تتبع طريقى الى هنا فى وفاء .

كانت زينة شبابى السعيد

وهى الآن للشيخ المقهور عزاء .

الشيخوخة أقبلت على غير انتظار ، تتعجلها المصائب ،

وراح الألم يضاعف من عبء الزمان .

المشيب أحاط مفرقى قبل الأوان ،

والجلد الضامر يرتجف على الجسد الذابل.

مبارك هو موت البشر ، الذى لا يأتى فى سنوات المرح ،

بل يقبل على المقهور ، الذى طالما اشـــتاق اليه .

قديما ، عندما كان الحظ الغـادر يغمرنى بعطاياه العقيمة ،

كادت ساعة حزن أن تحنى رأسى ،

والآن ، وقد بدل ملامحه الخادعة، واكتسى بقناع قاتم ،

أصبح وجودى لعنة ، وراح الزمن يطول فى سأم .

لم كنتم تصـــفوننى بالســـعادة ، يا أيها الأصدقاء ؟

آه ، من يسقط ، فلم تكن واثقة خطاه .

***

من هذا الذى تخرج من شفتيه كل هذه الحسرات ؟ وما هذا القدر الذى نزل عليه حتى يزفر بكل هذه العبرات ؟ أهو فى شـدة يرجو منها الخلاص، أم فى زنزانة ينتظر حكم الجلاد؟ واذا كان سيف الجلاد يلمع فـوق رقبته ، فأى عزاء هذا الذى لم يفقد الأمل فيه ، حين يوشك الانسان أن يقطع كل أمل فى العزاء ؟!

هي شكوى سجين ، قيلت في سجن بشع وانتهت بموت أبشع . وهي أبيات يفتتح بها كتاب عظيم ، كان آخر ما دونه صاحبه ، وجمع فيه خير ما يمكن أن تقدمه الفلسفة للانسان . ضم فيه أشعة من فكر أفلاطون وأرسطو والرواقيين ، وصبغها في شفق تجربته الدموية ، فصار قبسا غريبا لا يزال يضيء للناس عبر العصور .

انه « بويتيوس » ، أو أنيسيوس مانليوس توراكواتوس سيفيرينوس بويتيوس كما يدل اسمه الكامل ! ولد في روما في عام ٤٨٠ (ب ٠م) من سلالة عريقة كان كثيرون من أفرادها من أعضاء مجلس الشيوخ . وفقد أباه وهو بعد صبي فتربى في بيت (كونتس أورليوس سيماخوس) وكان رجلامهذبا رفيع المكانة ، رعاه ونولى نشأته وزوجه ابنته فيما بعد . ولم ينحرف به شبابه ولا ثروته التي تركها له أبوه ، بل ساعدته فطرته الجادة على الاتجاه الى الدرس والتحصيل ، حتى أدهش معاصريه وحاز اعجابهم . ويكفي أن نعرف أنه كان أعظم الانسانيين الذين اهتموا بالتراث اليوناني بين الرومان، حتى لقد جعل رسالة حياته أن يترجم أعمال أفلاطون وأرسطو ويرتبها، لولا أن فاجأه الموت المبكر ، فسمي بحق « آخر الرومانيين » [1] . تقلد منصب القنصل في عام ٥١٠ ، وشرف في عام ٥٢٢ بتكريم لا يحظى به الا القليلون ، اذ عين ولداه سيماخوس وبواتيوس قنصلين في وقت واحد . وأصبح رئيس مستشاري البلاط في رافنا أو ما يسمى بالماجستره أوفيسيورم ، فنال المجد والشهرة ، وسار في منصبه على الخلق الفلسفي القويم .

كانت رافنا في ذلك الحين هي عاصمة امبراطورية الغوط الشرقية ، وكان يحكمها ملك عادل حكيم هو تيودريش (٥٢٦ - ٥٧١) الذي ضم ايطاليا الى مملكته ، ووصفه أعداؤه أنفسهم بالشجاعة والذكاء . ولكن العلاقات ساءت فجأة بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية على عهد البابا يوحنا الأول (٥٢٣ - ٥٢٦) فقد أصدر قيصر الامبراطورية الرومانية الشرقية جستينوس (٥١٨ - ٥٢٧) قرارا باضطهاد الأريانيين[2] الذين كان الغوطيون وسائر القبائل الجرمانية يدينون بعقيدتهم. وأضمر تيودريش العداء للامبراطورية الشرقية ، وهدد باتخاذ اجراءات مضادة . وسعى بعض رجال البلاط بالدس والوقيعة ، فقالوا لتيودريش ان أحد أعضاء مجلس الشيوخ وكان اسمه ألبينوس، على صلة سرية بالسياسيين في بيزنطة . وهب بويتيوس للدفاع عن زميله ، دون أن يخطر بباله أن التهمة قد تمتد اليه . وفقد الملك ما عرف عنه من الحكمة والاعتدال فأمر بالقبض عليه ، والالقاء به في سجن بافيا ، وأوعز الى مجلس الشيوخ بالحكم عليه بالاعدام ، أو بالأحرى بالتصديق على الحكم عليه . وسواء أصحت التهمة أم لم تصح - فلم يثبت عليها حتى الآن دليل - فقد أعدم بويتيوس في عام ٥٢٤ بالقرب من مدينة ميلانو ، بعد سجن دام ستة أشهر ، ودفن في كنيسة سان بيترو .

بقي بويتيوس اذن في سجنه ينتظر الموت وراح يؤلف « عزاء الفلسفة » [3] في خمس

---

(١) صاحب هذه التسمية هو ادوارد جيبون . صاحب الكتاب المشهور : تاريخ أفول وسقوط الامبراطورية الرومانية .

(٢) اتباع أريوس الذي مات في عام ٣٣٨ أنكر وحدة الماهية بين الله والمسيح اذ قال بأن الله هو الذي خلقه ولكنه نفى عنه الطبيعة الالهية .

(٣) Conselatio Philosophiue

كتب ، أملتها عليه تجربة أليمة ، استطاع مع ذلك أن يرتفع فوقها ويستعين عليهـا بالحكمة التى استمدها من ينابيع الفلسفة القديمة؛ من أفلاطون وأرسطو والرواقية والأفلاطونية المحدثة جميعا، وأن يقترب فيه من الروح المسيحية السمحة التى جعلت رجال العصر الوسيط يجعلون منه أحد شهداء الكنيسة، مع أنه كان من أتباع الأفلاطونية المحدثة ولم يكن مسيحيا بالمعنى الدقيـق لهذه الكلمة .

***

لم يكد بويتيوس يفكر فى شكواه الصامتة ويحاول تدوينها على لوح أمسكه فى يده اليمنى، حتى خيل اليه أنه يرى سيدة جليلة المظهـر ، نافذة العينين ، شامخة القامة لم يدر كيف دخلت عليه زنزانته ووقفت الى جانبه تطل عليه كأنهـا رؤيا من زمن آخر بعيد . كانت تبدو متقدمة فى العمر، وان كانت لا تزال تحتفظ بقوتها وشبابها. وكان عودها السامق الذى يكاد يطاول السماء ، وهيئتها الجادة الرزينة ، تكسبانها شيئا لا يمت بصلة الى البشر . أما رداؤها فمن خيوط رقيقة، على هيئة الشباك المتوازية ، ينتهى بذيل جرار ، ولا يخلو من آثار تمزيق ، لعـله نتيجة الأذى والاضـطهاد الذى لقيته على مر العصور ، وفى وسطه رسمت حروف الألف باء اليونانية ، بحيث تبدأ من أسـفل بالحروف π (ب) اختصار براكسيس ، أو الحياة العملية وتنتهى من أعلى بالحرف ثيتا (ق) اختصار «ثيوريا» ، أو الحياة النظرية التأملية . وكانت تحمل فى يدها اليمنى لفة مكتوبة ، وفى اليسرى صولجانا ينطق بمجدها وسلطانها حين كانت أم العلوم .

غضبت السيدة الجليلة حين أبصرت ربات الشعر حول فراش السجين ، يملين عليه شكواه الحزينة التى عرفناها من قبل ، وأظلمت عيناها وتكلمت قائلة : من الذى سمح لهـؤلاء البغايا بالدخول الى هذا المريض ، لا ليخففن آلامه ، بل ليزدنها اشتعالا بسمهن الحلو ؟ انهن يعكرن صفاء العقل بظلام العاطفة ، ويجلبن عليه المرض بدلا من أن يخلصنه منه . وما نفعهن لرجـل قضى شـبابه عاكفا على دراسـة الايليـين(١) والأكاديميـين ؟ (٢) فلتطردهن اذن ولتتركنـه لرعاية ربات الفلسفة .

جرت الدموع على خـد السـجين ، ولم يستطع أن يعرف من تكون هذه السيدة النبيلة الآمرة ؛ واستسلم لصمته وذهوله حتى اقتربت منه ، وجلست على حافة سريره ، وراحت تتأمل وجهه الحزين وتشكو مما أصابه من اضطراب التفكير :

ويلى كيف هوى العقل الى القرار السحيق عاجزا مسلوبا من وضوحه وصفائه !

كان من عدته أن يبحث عن الأصول
ويهبط الى منابع الطبيعة الخفية
أما الآن فهو مستضعف يحيط به الظلام
والرقبة ترهقها القيود الثقيلة .

الوقت اذن وقت العـلاج لا الشـكوى ! وسوف تثبت فيه عينيها العميقتين اللامعتين وتسأله: ألست أنت الذى أرضعته من لبنى وغـذيته من طعامى حتى بلغ نضوج العقـل ورجولته ؟ ألم أزودك بأسلحة كان يمكن أن تحميك لولا أن

(١) أول المدارس الفلسفية اليونانية .

(٢) نسبة الى الاكاديمية التى أسسها افلاطون وخرج منها أعظم تلامذته أرسطو .

ألقيت بها بعيدا عنك ؟ ألم تعد تعرفني ؟ لم تسكت الآن ؟ أمن الخجل أم من الحيرة والاضطراب ؟

وجدته السيدة صامتا لا يقوى على الكلام فوضعت يدها على صدره ، وجففت الدموع المنسابة على خده ، وطمأنته الى أن ما يعانيه ليس بالمرض الخطير • وأنه انما نسي نفسه وسيذكرها بمجرد أن يتعرف عليها من جديد • وأحس كأن ضباب حزنه قد انقشع ، وكأن شمس الأمل كادت تعشى عينيه • ورفع بصره الى وجه طبيبته فعرف فيها مرضعته ومربيته ، فلم تكن هذه السيدة النبيلة الا الفلسفة التي نشأ في بيتها وتعلم على يديها • كم يدهشه أنها نزلت من عرشها العلوي وجاءت تزوره في منفاه الوحيد ! ألا تخاف على نفسها أن يتهموها زورا كما اتهموه ؟ ألا تخشى العقاب الظالم الذي ينتظره ؟

ولكن معلمة الفضائل لم تكن لتتركه وحيدا في محنته ، ولا كان يرضيها أن تتخلى عنه بغير أن تقاسمه الآلام التي تحملها في سبيلها • وهل كان لأم العدالة أن تترك البريء المظلوم يسير وحيدا على طريق قدره ؟ وهل يليق بها أن تخشى الاتهام وهو ليس جديدا عليها ؟ وهل هي المرة الأولى التي تتعرض فيها الحكمة للخطر ؟ ألم يكن على القدماء – حتى قبل عهد أفلاطون – أن يكافحوا الغباء مر الكفاح ؟ ها هي ذي تقول له : ألم ينتصر معلمك سقراط على الموت الظالم بوقوفي الى جانبه ؟ لقد شرب السم كما تعلم ، ومات قبله كثيرون في المنفى أو على يد الجلاد : أنكساجوراس اضطر الى الفرار أمام غضب الجماهير ليموت بعيدا عن وطنه ، زينون الايلي (١) جلد وعذب وقتله الطاغية نيآرخوس قتلة فظيعة ، وكانيوس الرواقي أعدمه القيصر المجنون كاليجولا • وسنيكا الحكيم اضطره نيرون الى الانتحار ، وسورانوس أدى به حبه للعدالة الى الموت ظلما • لا يدهشك اذن أن نسبح على أمواج الحياة فتتقاذفنا العواصف من هنا ومن هناك ، فقد قدر علينا أن نغضب الأشرار ، وأن نكون همهم الدائم في حياتنا وبعد مماتنا • ان كنت قد وعيت هذا الكلام فما الذي يدعوك الى البكاء ؟ لا تخف عني شيئا • ان كنت في حاجة الى معونة الطبيب فلا بد أن تكشف عن الجرح•

ويجمع بواتيوس أطراف شجاعته فيسألها : أليس في رؤية هذا المكان ما يغني عن كل كلام ؟ ألا ينطق بقسوة القدر الذي حكم به علي ؟ أهذه هي ملامح وجهي حين كنت أبحث معك في أسرار الطبيعة ، وكنت تعلمينني بمعونة الدائرة مسار النجوم ، وتنظمين حياتي على هدى النظام السماوي ؟ أهذا هو جزاء طاعتك ؟ ألم تزيني لي على لسان أفلاطون (الجمهورية ، ٥ ، ١٨) أن الدول التي يحكمها الفلاسفة هي الدول السعيدة وأن الأشرار والمجرمين لا ينبغي لهم أن يتولوا شئونها حتى لا يهلك الأخيار والطيبون ؟ لقد استمعت الى نصحك، وحاولت أن أطبق العلم على العمل• يشهد الله وتشهدين على انني لم أبلغ هذا المنصب الا لحرصي على الصالح العام• وهكذا نشب النزاع بيني وبين الأشرار ، وجلبت على حرية الضمير سخط الحكام • كم من مرة ثرت على وال يغتصب مال المحروم ، وحميت الفقير من استغلال الغني • وكم أنقذت الفلاحين من اللصوص الرسميين ، وخففت عنهم الضرائب

---

(١) تلميذ بارمنيدس الشهير •

التى أذاقتهم الجوع • وكم جلبت على نفسى حقد رجال البلاط ، وعرضتها للخطر حبا فى العدل • القنصل باولينوس ، الذى كاد الطفيليون من رجال البلاط يبتلعون ثروته، أنقذته من أيديهم • والقنصل ألبينوس خلصته من عقاب كان ينتظره لتهمة باطلة ، وعرضت نفسى لكراهية الداهية كيبريان • ولكن من الذى وجه الى الاتهام الذى أدى بى الى هذا المصير ؟ انه بازيليوس الذى طرد من قبل من خدمة الملك • وأوبيليو وجادينتيوس اللذان حكم عليهما بالنفى بسبب جرائمهما العديدة فلجآ الى معابد الآلهة هربا من العقاب • أولئك هم الذين لطخوا اسمى، وكانوا أولى الناس بأن تلطخ جباههم وينفوا من الديار • ولكن هل تريدين بعد هذا كله أن تعلمى التهمة التى وجهت الى ؟ لقد ادعوا على أننى أردت أن أحمى المجلس (السينات) ، فحلت بين المدعى وبين تقديم الأسانيد التى تثبت خيانة المجلس • ولكننى لم أفعل ذلك ، وما كان لى أن أخون مبدأ سقراط فأخفى الحقيقة وأظهر الكذب • لقد نسبوا الى رسائل مزورة يدعون أننى طالبت فيها بتحرير روما • وربما كانت ارادة الشر دليلا على عجزنا البشرى ، أما أن يتمكن الشرير من أن ينفذ أمام الله خيانته ، فتلك هى كبيرة الكبائر • وقد يكون هذا هو الذى حدا بواحد من تلاميذك أن يسأل فيقول : « اذا كان الله موجودا ، فمن أين يأتى الشر ؟ ومن أين يأتى الخير ، لو لم يكن هناك اله ؟ » • ولو أن الأمر اقتصر على الأشرار بطبيعتهم ، لما كان فى ذلك شىء ، أما أن يشترك أعضاء المجلس كله فى توجيه التهمة الكاذبة الى فذلك ما يدهشنى حقا • ان هذا المجلس نفسه هو الذى طالما تصديت للدفاع عنه وتفنيد التهم الموجهة اليه ولعلك يا معلمتى لا زلت تتذكرين دفاعى عنه عندما سعى الملك فى فيرونا الى القضاء على أعضاء المجلس جميعا ، بسبب تهمة الخيانة التى نسبت الى ألبينوس وحده فأراد الملك أن ينسبها الى الجميع • وها هو نفس المجلس يتهمنى بالاجماع فى غيابى ، بينما تفصلنى عنه مسافة خمسمائة فرسخ ، دون أن يحاول الاستماع الى دفاعى • وبأى تهمة ؟ بالخيانة طمعا فى منصب وأنت التى طردت من قلبى كل مطمع فى شىء أرضى ، بل لم تتركى فيه مكانا للطمع ، وما زلت تهمسين فى سمعى كل يوم بهذه الكلمة الفيثاغورية : اتبع طريق الله ! لا بل يزيدون على ذلك فيدعون أنك أنت التى دفعتنى الى ما يتهموننى به ، وما دفعتنى لغير التشبه بالله ! ويزيد من ألمى أن الشعب الذى طالما وقفت الى جانبه ، يصدق دعواهم ، ويؤيد حرمانى من أملاكى وتجريدى من مناصبى ، وتنفيذ الحكم الذى ينتظرنى •

قالت السيدة الجليلة لقد رأيت دموعك فعرفت أنك منفى تعيس • ولولا ما قلته لى ما عرفت شيئا عن قضيتك • غير أنك وان كنت بعيدا عن الوطن ، فأنت لم تنف وانما نفيت نفسك بنفسك ، وضللت الطريق بارادتك • ألم أعلمك أن الحرية فى أن يمسك المرء بزمام نفسه ، ويطيع الحق والقانون بمشيئته ؟ ألم أجعل لك وطنا لا نفى منه ، لأنه لا أسوار له ولا أبواب ؟ ان وجودك فى هذا المكان لا يحزننى بقدر ما تحزننى رؤيتك على هذه الحال • ان مرارة الألم تمزقك ، والعواطف تعصف بك ، وهذا ما يجعلنى أسقيك الدواء قطرة فقطرة • وتسأل السيدة : هل ترى أن هذا العالم تحكمه الصدفة

أم تعتقد أن هناك نوعا من التدبير يتحكم فيه ؟
فيجيب السجين : حاشاى أن يخطر لى ذلك على بال ! انما أؤمن بأن الخالق يسهر على خلقه .
وتهتف السيدة قائلة: ما أعجب أن يصيبك المرض مع هذا الرأى السليم ! وما دمت لا تشك فى أن الله هو الذى يدبر العالم ، فهل تستطيع أن تقول لى ما هى المبادىء الأساسية التى تدبره ؟ ويعجز السجين عن الجواب فتعود الى السؤال : هل تتذكر الغاية الأخيرة من الطبيعة ؟

ـ كنت أعرفها ولكن الحزن أنلم ذاكرتى.

ـ ألست تعرف أصل الأشياء جميعا ؟

ـ قلت انه هو الله .

ـ فهل يجوز أن تعرف الأصل وتجهل الغاية ؟ هل أنت واثق من أنك انسان ؟

ـ وكيف لا أعرف ؟

ـ فهل تشرح لى ما هو الانسان ؟

ـ ان كنت تقصدين به الكائن العاقل الفانى فأنا أعرفه .

ـ ألا تعرف أيضا أنك شىء آخر ؟

ـ لا .

ـ اذن فلم تعد تعرف من أنت . هذه هى علة مرضك الحقيقية . فلأنك نسيت نفسك رحت تشكو من أنك منفى مجرد من أملاكك . ولأنك لم تعد تعرف الغاية الأخيرة ، ظننت أن التافهين وسيئى السمعة هم الأقوياء والسعداء . ولأنك نسيت الأفكار التى تدبر العالم فقد توهمت أن الأقدار تترنح هنا وهناك بغير تدبير . ولكن ما دمت تؤمن بأن حكمة الله لا الصدفة العشواء هى التى تدبر الكون ، فلا شك أن شفاءك غير مستحيل .

أتريد أن تنظر نظرة صحيحة .
وتعرف الحقيقة
فسر فى طريقك
بخطى عاقلة
طارد الفرح والخوف
وابتعد عن الأمل
يبتعد عنك الألم .
فالنفس تتعكر
وتغل فى القيود
ان تحكما فيها .

***

وصمت السجين قليلا فاستطردت تقول : ان كنت قد أدركت علة مرضك فلا بد أنك تتحرق شوقا الى حظك الماضى ، وتقنع نفسك بأن التغيير الذى أصابه قد غير الكثير من روحك وعقلك . ولكننى أعرف هذا الكائن الخرافى ، واعرف نفاقه والعابه الساخرة . ولو تذكرت حقيقته معك ، لتبينت أنك لم تستفد منه ولا خسرت بفقده شيئا . ولست فى حاجة الى تذكيرك بهذا ، فقد طالما هاجمته بكلمات وأفكار استقيتها من مملكتى المقدسة . وكل تغيير مفاجىء لا بد أن يترك أثره على النفس ، وينتزعها ولو الى حين من راحتها . وعلى الأن أن أبصرك بحقيقة ما يدور فى باطنك .

ما هذا الذى رماك بالحزن والألم ؟ أنت تحسب أن الحظ أدار ظهره لك. ولكنك مخطىء. فتلك هى طبيعته ، وذلك دأبه . ولقد كان مخلصا لطبيعته حين راح يتملقك ، ويغريك بالسعادة . لقد تبينت النظرة الزائفة التى أطلت من هذا الكائن الالهى الأعمى . كانت تتخفى عن سواك، فاذا بها تكشف لك عن نفسها . هل تحزنك

حياتها ؟ اذن فتذكر عبثها بك ، واحتقر لعبتها الباطلة • ان ما يسبب الان لك الغم ، كان خليقا بان يطلب لك السلام • فلقد تخلى عنك شيء لا يأمن له أحد ، ولا يشك في أنه سيتخلى عنه ذات يوم • أم تحسب ان للحظ قيمة ، وانت لا تجهل انه زائل ؟ وهل تعز عليك سعادة تعلم ان بقاءها موضع شك ، وان اختفاءها يجلب الحزن ؟ ان العاقل لا يحلم على ما يراه بل يعتبر بالخواتيم ، وتقلب الحظ يعلم من يريد التعلم أن خطره لا يخيف واغراءه لا يخدع • انك ان أسلمت الشراع للريح فلن تبلغ الشاطىء الذى تريد ، بل ستصل الى حيث تدفعك • وما دمت قد خضعت للحظ فعليك أن تسلم بأحكامه• أم هل تريد أن توقف عجلته الدائرة ؟ يا أشد الفانين حمقا ! انها ان بدأت تستقر ، فلن تكون اذن هي عجلة القدر ! ستقول لك الهة البخت والنصيب : لماذا تتهمني فبالغ في الاتهام ؟ أى ظلم ألحقته بك ؟ أتقول انك كنت تملك الثروة والجاه ؟ ولكن متى بقيت ملكا للبشر الفانين ؟ حين خرجت عاريا من بطن أمك رعيتك وتعهدتك بعنايتي • ولكنني يحلو لي الان ان أنفض يدي عنك • فبأى حق تشكو من ضياع شيء لم تكن تملكه ؟ ان الثروة والجاه خاضعان لي ، ياتيان معي ويذهبان متى ذهبت • بأى حق يكرهني البشر على ما ليس في طبعي ؟ ان عجلتي تدور الى أعلى أو الى أسفل ، فاصعد معها ان شئت ، ولكن لا ترمها بالظلم ان هبطت بك • وما الذى تقوم عليه الفجيعة في المأساة ، ان لم يكن هو القدر الذى يخرب الممالك ويخبط بضرباته خبط عشواء ؟ ألم تتعلم وأنت صبي أن هناك وعاءين عند عتبة زيوس ، أحدهما ملىء بالعذاب والألم والآخر بالهناء والفرح ؟ (الالياذة ٢٤ ، ٥٢٨ – ٥٢٧) أم تغترف من الوعاء الأخير مايزيد عن غيرك ؟ وهل تخليت عنك يوما كل التخلي ؟ أتريد أن تخضع لقانون وضعته لنفسك دون القانون الذى يطيعه الجميع ؟

وترن هذه الكلمات في سمع السجين رنينا عذبا ، ويدوق فيها حلاوة الخطابة والشعر • غير ان عذابه اعمق من ذلك بكثير ، وعقله المضطرب لا يزال في حجه الى البلسم الذى يشفيه • والسيدة الحليمة تحاول ان تسلن من روعه ، اما العلاج الحاسم فلم يئن اوانه بعد • فها هي ذى تذكره بطفولته ، عندما حرمه الموت من ابيه، فتولته ايد امينه بالرعاية والحنان ، حتى اذا بلغ سن الرجولة غبطه الناس على الزوجة النبيلة والأبناء النجباء ، وتوالت عليه اسباب المجد والتكريم ، وشرف ولاه في يوم واحد بالتعيين في منصب القنصل ، بين تهليل الجماهير وتهنئة أعضاء المجلس • لقد غمرته الهة الحظ بما لم تغمر به سواه ، ولو أحصى ألوان السعادة التي نعم بها لزادت عن ألوان الشقاء • أما ما يعانيه الان من بؤس وما ينتظره من جزاء فهو شيء عابر ككل شيء سواه • ومهما خيل للانسان أن سعادته دائمة ، فان اليوم الأخير من حياته يحمل معه الموت لهذه السعادة الدائمة : ان الكون نفسه يبدو متقلبا ، وكذلك حظ الانسان ، وما يسلك من خير أو متاع أبعد ما يكون عن اليقين • أما القانون الأبدى الوحيد فهو هذا : ما من شيء مخلوق له صفة الدوام •

ولا يشك السجين فيما تقوله أم الفضائل جميعا ، ولا يجادل في أنه كان في يوم من الأيام من أسعد الناس • ولكنه يقول لها ان أشد أنواع

الشقاء أن يتذكر الانسان أنه كان سعيدا ذات يوم • وتدعوه أم الفضائل أن يجفف دموعه ، فما زال بين الأحياء من يذكره ويذرف الدموع عليه ويتحرق شوقا اليه ، وما زال هناك عزاء عن الحاضر وأمل فى المستقبل • فمن ذا الذى اكتمل حظه من السعادة فلم يدع له سببا للشكوى ؟ ألا ترى الغنى يفتقر الى النبالة ، والنبيل يعوزه الغنى ؟ ألا ترى السعيد فى زواجه محروما من الأبناء ، ومن رزق الابناء شقيا بأعمالهم ؟ ليس شقاء الا ما تعده كذلك ، وكل قدر تستطيع أن تراه سعيدا ، لو أمكنك أن تحتمله فى هدوء واتزان • ومن ذا الذى بلغ من السعادة حدا لا يتمنى معه لو أنه استطاع أن يغير حاله ؟ وأية حلاوة فى أقدار البشر لا تمتزج بمرارة ؟ يا لها من سعادة ناقصة هذه التى تأتى من اسباب أرضية ! فلماذا اذن ، أيها الفانون ، تبحثون عن السعادة خارج نفوسكم ، وهى كامنة فيها ؟ ان الجهل والضلال يعميان أبصاركم • دعنى أشرح لك سر السعادة الخالصة • هل هناك ما هو أعز لديك أو أعظم قيمة عندك من نفسك ؟ لا شك أنك ستجيب بالنفى • لو امتلكت السيطرة على هذه النفس ، فسوف تمتلك شيئا لا يضيع منك ولا يستطيع القدر ان يسلبك اياه• ان السعادة الحقة لا يمكن أن تعتمد على الصدفة، ولا هى مما يمكن أن يسلب من الانسان • ومن ثم فان الحظ المتقلب لا يمكن أن يكون سبب من أسباب السعادة • وكل من يقوده الحظ قد يجهل طبعه المتقلب وقد يعرفه • فاذا كان يجهله فأى سعادة يمكن أن تصيب الانسان مع هذا الجهل ؟ واذا كان يعرفه فلا بد أنه يخشى ضياع ما يعلم أنه عرضة للضياع ، ولا بد أن هذا الخوف سيحول بينه وبين السعادة • ألست مقتنعا بأن نفوس البشر غير فانية ، وأن السعادة العارضة تموت بموت الجسد ؟ ولو كان فى مقدور الحظ المتقلب أن يهب البشر السعادة الحقة ، فهل تشك فى أنهم سيصيرون بعد الموت الى الشقاء الدائم ؟ ولو سلمنا بأن عطايا الحظ ليست بطبعها زائلة ، فأى شىء فيها لا يفقد قيمته مع الزمن ، وأى شىء فيها له قيمة فى ذاته ؟ لن تستطيع أن تقول هذا عن ذهب ولا فضة ، فهى ان صارت ملكا لواحد بمفرده تسببت فى فقر الاخرين ، وان وزعت بين الجميع لم تصبح ملكا لأحد ! ولكن هل هناك صلة تربط بينها وبين نفسك التى تحس ؟ أليس جمال النفس ونورها أروع من الجمال والنور الذى ينبعث من الذهب والأحجار الكريمة ؟ ولماذا تنسب للأشياء الخارجية من القيمة ما تحرمه على ذاتك ؟ أم ترى بلغ بك قصر النظر أن تجد السعادة فى الملابس الزاهية والخدم والحشم ؟ ما الذى تسعون اليه اذن من وراء هذا الضجيج كله عن السعادة ؟ انكم تحاولون بشره الى التملك والترف أن تبعدوا عن أنفسكم الاحساس بالنقص والحاجة، ولكنكم لا تزيدونه الا قوة واشتعالا . لقد انقلبت الامور حتى ظن الكائن الانهى العاقل أن مجده لن يسطع الا اذا امتلك ما لا حياة فيه • لقد أراد الخالق أن يرتفع الجنس البشرى فوق كل ما هو أرضى ، ولكنه يشاء الا أن يضع نفسه بين الأشياء الزائلة فى أحط مكان ! وهل يستطيع أن يرتفع فوق الأشياء الا اذا عرف نفسه ؟ وهل يستطيع أن يعرف نفسه حتى يعرف أن قيمتها تعلو على كل ما عداها ؟ أنت يا من تخاف الآن من السيف والرمح ، تعلم أن تتجول فقيرا على الارض ،

وسوف يمكنك أن ترفع صوتك بالغناء أمام قاطع الطريق ! ثم ماذا أقول عن المنصب والسلطان ؟ وهل كان في وسع الحمم المتفجرة من بركان « اتنا » أن تسبب من الخراب والدمار مثلما سببه المنصب والسلطان حين كانا في يد حاكم شرير؟ ألا تذكر كيف سعى آباؤك الى الغاء لقب القنصل لما وجدوه من غرور القناصل ، مثلما محوا كلمة « الملك » من قبل لما لمسوه من جبروت الملوك؟(١) ان الفضيلة لا تشرف بالمنصب ، بل المنصب هو الذى يشرف بالفضيلة • ثم ماذا يغـــريكم فى السلطان ويحببه اليكم ؟ هل تنسون أيها القانون من أنتم ومن الذين تتحكمون فيهم ؟ ألن تنفجر ضاحكا لو سمعت أن فأرا أعطى لنفسه الحق فى التسلط على غيره من الفيران ؟! وهل هناك من هو أشد عجزا من الانسان ؟ ألا تكفى لدغة بعوضة للقضاء عليه ؟ وهل يتسلط صاحب السلطة حقا على شيء سوى الجسد أو المتــاع ؟ وأين الذى يتحكم فى العقـــل الحـــر ؟ وأين من يزحزح الخلق الثابت عن هدوئه ؟ ألا تذكر ذلك الطاغية الذى أخذ يعذب رجـــلا حرا ليشى برفقه فى المؤامرة المنسوبة اليهم ، فما كان من هذا الرجل الحر الا أن عض لسانه وبصقه فى وجه الطاغية؟!

لو كان المنصب أو كانت السلطة خـيرا فى ذاتها ، لما وقعت فى يد الشرير ، فالأضداد ، كما تعلم ، لا تجتمع أبدا • وقل مثل ذلك عن ألوان الحظ والسعادة التى لا تصيب الا سيئى السمعة • فما اســـتطاعت الكنوز أن ترضى النهـــم الذى لا يشبع ، ولا استطاعت السلطة أن تتيح لمـــن يرسف فى أغلال الشهوات أن يكون له سلطان على نفسه • انها ليست خيرا فى ذاتها ، فـكيف تستطيع أن تجعل من أصحابها أخيارا ؟

كلنا يعرف المفسد نيرون
الذى أحرق روما ، وقتل الشعب
كلنا يعلم كيف قتل شقيقه
وكيف لطخ يديه بدم أمه
وعندما أبصر الجسد الهامد
لم يجد الدموع التى ترطب وجهه
وانما راح يطرى الجمال الضائع •
هل استطاع السلطان الرفيع
أن يوقف جرائم نيرون ؟
يا له من قدر قاس ،
حين تلتقى شهوة القتل
بسلطان السيف •

***

حين تلتقى شهوة القتل بسلطان السيف

ويجيب السجين قائلا : أنت نفسك تعلمين أن الطموح الى متاع الأرض لم يكن من طبعى• ولكن نفسى كانت تشتاق الى الفعل ، حتى لا تشل طاقة العمل • فترد عليه السيدة الحكيمة بقولها ان من صفات الأرواح التى ميزتهـــا الطبيعة ، والتى لم تبلغ كمال الفضيلة ، أن تســـعى الى المجد والسمعة الطيبة عن طـــريق ما تحققه من أعمال فى سبيل الدولة • ولكن يا له من جهـد ضائع وعقيم ! فأنت تعـــرف من تعاليم الفلكيين ومن قراءاتك لبطليموس أن الارض لا تزيد عن نقطة ضئيلة اذا قورنت بالفضاء الكونى الكبير ،

(١) انتهت أقدم مرحلة من مراحل التاريخ الرومانى حوالى عام ٥١٠ ق٠م بطرد آخر الملوك الطغاة تاركوينيوس سوبربوس وحاشيته • ولم ينس الرومان ذلك أبدا ، حتى بلغ من كرههم للملوك أن حرموا على قيصر نفســـه (١٠٠ – ٤٤ ق٠م) أن يسمى نفسه ملكا .

وأن الجـــزء المســـكون منها لا يزيد عن ربع مساحتها • فاذا طـرحت من هـــذا الربع تلك المساحات الشاسعة التى تشغلها البحار والصحارى والمستنقعات لما بقى للانسان الا جزء ضئيل • فما قيمة المجد الذى يطمع صاحبه فى أن ينشر ذكره على هذا الحيز الصغير ؟ وهل يمكن أن تبـقى لهذا المجد قيمة فى ذاتها ؟ واذا عرفت أن هذا الحيز الصغير تسكنه شـعوب مختلفة اللغـــات والعادات والطباع فهل تحلم مدينة من المدن بأن يسير ذكرها فيـــه ، ناهيك بفرد واحـــد ؟ ان شيشرون يعترف فى أحد كتبه (عن الدولة ، ٦، الفصـــل العشرون ، ٢٢) أن ســـمعة الدولة الرومانية فى قمة مجدها لم تستطع أن تتعـدى القوقاز ، فهل تشك بعد هذا أن من العبث أن يفكر امرؤ فى نشر اسمه فى مثل هذا الحيّز الضيق المحدود ؟ واذا تفكر الانسان فى خـلود الزمن فمن أين يأتيه الفرح بخلود الاســم ؟ واذا استطاع ان يحفظه عبر آلاف السنين ، فما هى هذه الآلاف اذا قيست بعمر الأبد ؟ وما قيمة المجد الذى أحـرزه عظمـــاء الرجال اذا كانت أجسادهم ستتحلل بعد الموت الى تراب ؟ وماذا ينفع بعـــد ذلك أن تشتهر أســـماء لا وجـود لأصحابها ؟ ولكن الغرور هو الذى يسول لـكم أن تسعوا الى المجد والشهرة بين الناس • فاسمع حكاية الرجل الذى عرف كيف يسخر من هذا الغرور • فيحكى أنه سمع أن رجلا سمى نفسه بالفيلسوف ، لا عن حب للفضيلة ، بل عن ولع بالشهرة • وقال الرجل لنفسه : سأجرب معـه السب والاهانة لأعرف من صبره عليها ان كان فيلسوفا حقا كما يدعى • واحتمل الرجل فترة ثم قال فى سخرية مما أصابه من أذى : « هـل رأيت أخيرا أننى فيلسوف ؟ » فرد عليه الأول فى سخرية أشد مرارة : « لو أنك سكت لرأيت ذلك حقا ! » •

***

راح السجين يستمع فى دهشة وذهول الى هذا العزاء العلوى للقلب المتعب ولكنه كان يسائل نفسه عما عسى أن يكون ذلك العـلاج الحاسم الذى حدثته الفلسفة عنه • ولم يطل صـــمتها عنه ، فقد وعدت بأن تأخذ بيـــده الى السـعادة الحقة ، واستحلفها بأن تعجل به اليها • وأطرقت ببصرها قليلا الى الارض ثم بدأت تقـــول : ان مسعى الفانين ، وان سار فى دروب عـديدة ، انما يتجه فى النهاية الى هدف واحد هو السعادة. انها هى الخير الأسمى الذى ينطوى على كل خير، كما يسعى اليه كل امرىء على طريقته • فقـد فطر الناس على البحث عن الخير الحق ، وان كانوا يختلفون فيما بينهم حول معناه • فبعضـهم يراه فى الثروة والجاه ، وبعضـــهم فى الشرف والمجد والسلطان ، ولكنهم يتفقون فى أن الخير الأسمى مرادف للذة والسرور ، أى لما يعتقدون أنه يحقق لهم السعادة • فالسعادة حال تصـيب من يعتقد أنه يمـــلك كل ألوان الخـير ، وأنه يستطيع أن يكتفى بنفسه ، فلا يحتاج الى شىء يأتيه من الخارج • ألا ترى الناس يبحثون عن الثروة والمنصب والسلطة والمجد والمتعة لاعتقادهم أنها تضمن لهم الاحترام والشهرة والفرح ؟ انهم وان اختلفوا فى معنى الخير ، فلن يختلـفوا فى سعيهم الى الخير الأسمى •

ان الكائنات تحن الى أصلها ، فالأسد المقيد بالسلاسل يحن الى عرينه ، والطائر الحبيس فى قفصه يشتاق الى غابته ، وأنتم يا أبنـاء الأرض

تدفعكم الفطرة الى أصل الخيرات جميعا وغايتها ـ الى السعادة .

لنسلم بأن من يملك أسباب السعادة ، من مال أو شرف أو منصب ، يصبح سعيدا . فهل هناك من اجتمعت له «كل» أسباب السعادة ؟ هل منهم من نال السعادة التى لم يعكر صفوها هم أو كدر أو ظلم ألحقه بغيره ؟ ومتى كانت الثروة قادرة على أن تمكن صاحبها من الاستغناء عن غيره والاكتفاء بذاته ؟ وكيف تستطيع ذلك وهى لا تقدر أن تدافع عن نفسها من السرقة والاغتصاب ، بل تحتاج دائما لمن يحميها ويحفظها ؟ وأين الغنى الذى لا يشعر بالجوع والعطش ، أو لا ترتعش أعضاؤه لبرد الشتاء ؟ قد تقول ان الثروة تستطيع أن تسكن الجوع وتروى العطش وتجلب الدفء ، ولكن هل تستطيع أن تقضى على الحاجة تماما ؟ ألا تجعل هى نفسها الانسان أكثر حاجة ؟ ألا تزيده شرها وجشعا ؟ ان الطبيعة يكفيها القليل ، أما الجشع فلا يشبعه شىء .

ويمكنك أن تقول مثل ذلك عن المنصب والسلطان . فأنا أسلم معك بأن صاحبهما يعيش مكرما مرموقا . ولكن هل استطاع المنصب والسلطان أن يزرعا الفضيلة فى قلوب أصحابهما أو يقتلعا الرذيلة منهما ؟ ألا ترى أنهما لا تصيبان فى الغالب الا أقل الناس شأنا وأضعفهم خلقا ، وأنهما لا تزيدانه فى معظم الأحيان الا خسة وشرا ؟ ان شرف المنصب لا يجعل صاحبه شريفا ، كما أن العاطل عنه لا يمنعنا من أن نسميه فاضلا وحكيما . لأن الفضيلة ، كما تعلم ، تحتفظ بقيمتها فى ذاتها ، ولأن من احتقره الناس مرة لن يجلب المنصب له الاحترام . ثم ان كرامة المنصب تتفاوت من عصر لعصر ، وتختلف من شعب لآخر ، فأى جمال اذن يكمن فيها ؟

أتظن أن الملك يجلب السعادة ؟ ولكن ماذا تقول فيه اذا كان لا يستطيع أن يحافظ على نفسه ؟ ألم تسمع بذلك الطاغية ديونيزوس ، (حاكم سيراقوزه منذ عام ٤٠٥ ق.م) الذى راح المنافق داموقليس يطرى حظه وسعادته ، وكيف أراد أن يثبت له هوان هذه السعادة وتعرضها للزوال فدعاه الى مائدة فخمة حافلة بينما علّق فوق رأسه سيفا حادا يتدلى من شعرة حصان ؟ فأى سلطان لا تفترسه الهموم ، وأن منصب لا يمشى صاحبه على أشواك القلق ؟ انه كلما أظهر قوته ، كشف عن ضعفه ، وكلما بث الفزع فى قلوب الناس ، أثبت فزعه منهم . ذلك أن صاحب السلطة هو أول من يعيش فى خوف عليها . والذين يعيشون فى خدمته ، هم أول ضحاياها . ألم يرغم نيرون صفيه ومعلمه سينيكا على اختيار الميتة التى يرضاها ؟ ألم يسلم « أنطونيوس كاراكالا »[1] مستشاره لسيف الجلاد ؟ ذلك أن المقربين الى السلطان لا تقربهم اليه الفضيلة بل الطمع فى الثروة والجاه . فما أكثر ما يخدع المجد ، وما أكثر ما يهين ! وما أصدق أوريبيديز حين قال (أندروماخه ٣١٩ـ ٣٢٠) :

يا مجد ، أنت أيها المجد ،
كم رفعت مدعيا من حياة تافهة
لعدد لا يحصى من الفانين !

وما أجدر الحكيم ـ لولا أن الحكمة تمنعه

(١) قيصر رومانى قاس ، حكم من ٢١١ الى ٢١٧ بعد الميلاد ، قتل شقيقه وشريكه فى الحكم جيتا فى عام ٢١٢ كما أمر بقتل مستشاره اللاط بابيانوس الذى استهجن الجريمة .

من ذلك ـ بأن يعتز بنفسه ، حين يجد ان فضيلته لم تأته من رأى الناس فيه ، بل من سلامة ضميره واستقامة فعله . وما اسخف ان يعتز الانسان بنسبه او نبله ، بينما الفضل فيه للآباء والاجداد! ان جنس البشر كله فى هذا العالم متشابه الاصل: واحد بمفرده هو والد الجميع ، وهو وحده الذى يدبر الكل : اعطى فيبوس (الشمس) سطوعها ، والقمر هلاله ، والارض شعوبها ، والسماء كواكبها . جمع الاعضاء مع الروح الذى ارسله من العرش ، وبذر النبلة فى كل بشر فان . أتفتخرون بالاجداد ؟ اذكروا اذن الأصل الذى انحدرتم عنه ، اذكروا كذلك اباكم الالهى ، ولن يخلو من الدم النبيل من لا يتنكر للأصل ولا يزيد الشر ! .

ثم ماذا أقول عن متع الجسد ؟ ان السعى اليها محفوف بالهم ، والشبع منها مملوء بالندم . كم سببت للمتهالكين عليها من أمراض ! ولو انها كانت تجلب السعادة حقا ، فلماذا لا نقول عن البهائم انها سعيدة ، وهى لا تسعى لشىء كما تسعى الى اشباع الجسد ؟ ماذا بقى اذن ؟ الزوجة والأبناء؟ ولكن الأبناء كما قيل لى معذبون ، وأنت نفسك أدرى منى بذلك . فها أنت ذا فى سجنك قلق عليهم ، فهل يبلغ قلقهم عليك هذا المبلغ ؟ ألا يحق ليوريبيديز أن يصف من لا أبناء له بأنه سعيد فى الشقاء ؟! ان من طبع اللذة أن تغرى بالتمتع ، ولكنها كالنحلة التى تفر بعد أن تهدى عملها وتترك فى القلب لدغة لا تنسى . أتريد أن تغتر بمحاسن الجسد ؟ ولكن كيف تثق بملك زائل وفان ؟ وهل يمكنك أن تتفوق على الفيل فى ضخامته ، والثور فى قوته ، والنمر فى خفته ؟ أنظر الى اتساع السماء وثباتها وروعتها وسوف تكف عن التعجب مما لا يستحق العجب. اتذكر لينكويس الذى كانت عيناه تنفذان فى الحجر ؟ لو ان الكيبياديس الجميل كانت له عيناه ، ونفذ بصره الى ما وراء الجسد البديع ، فهل كان يعجبه قبح احشائه ؟ تعجب كما شئت بمفاتن الجسد ، ولكن تذكر ان الحمى التى تصيبه ثلاثة أيام لن تبقى لها أثرا .

هل اقتنعت الآن بأن هذه الأسباب جميعا ليست هى الطريق الى السعادة بل المتاهة التى تضلك عنها؟ ان البحث عنها بهذه الوسيلة كالبحث عن الذهب على أغصان الشجر ، أو الجواهر على فروع الكروم ، أو السمك فى حضن الجبل ، أو الغزال فى عرض البحر ، أو النجوم فى تراب الأرض . أتريد الآن أن تعرف الطريق الى السعادة الحقة ؟ هل تسلم معى بأن ما يكفى نفسه بنفسه هو الذى ينطوى على الشرف والقوة والمجد ؟ وهل توافقنى كذلك على أن الذى لا يحتاج لشىء غريب عنه ، ويحتوى على الشرف والقوة والمجد لا بد أن يكون شيئا مسعدا للقلب، وأن هذه جميعا لا بد أن تكون أسماء مختلفة لشىء واحد ؟ اذن فأنت تتفق معى فى أن الناس حين يطلبون الأجزاء المنفردة مما هو كل متكامل بطبيعته انما يفقدون الكل والأجزاء جميعا . فالذى يطلب الثروة وحدها يضيع القوة والكرامة والذى يسعى الى السلطة يضحى بالثروة ويحتقر الشرف والسمعة الطيبة . ولكنه حين يصل الى السلطة يترك الخوف يتسلط عليه، وبذلك تضيع هى أيضا من يده . ألا ترى اذن أنه لا يمكن أن يجد السعادة فى شىء وعده بها فلم يسبب له غير الألم ، وأن السعادة نفسها ليست شيئا يسعى اليه الانسان لانها ليست « شيئا » يمتلك أو يخشى

عليه من الضياع ؟ القوة والشرف والمجد .. الخ ليست اذن الا مظاهر خداعة للخير الحقيقي الكامل ولا يمكن أن تقربنا منه في كثير ولا قليل . وعلينا الآن أن نرى أين نلتمس هذا الخير الحق . ولكن لنبتهل الى الله أولا أن يقف الى جانبنا ، فذلك ما يخلق بنا أن نفعله حتى في أقل الأشياء شأنا ، كما علمنا أفلاطون الحكيم في محاورته « طيماوس » . لنحاول اذن أن نبحث عن هذا الخير الحق . ولنقل بادىء ذي بدء انه لا شك في وجوده ولا في أنه منبع كل خير سواه . اذ لو استبعدنا الخير فكيف نعرف أن الشر شر ، ولو ألغينا الكمال فكيف نعرف أن الناقص يفتقر اليه ؟ فاذا كانت هناك سعادة ناقصة بخير زائل ، فلا بد أن تكون هناك سعادة كاملة بخير باق . أما أين يكون هذا الخير فدعنا نتأمله سويا . إلله خير ، والدليل على ذلك أن عقول البشر تتفق على هذا الرأى . فما لم يكن هناك شيء يمكن التفكير فيه أفضل من الله ، فلا سبيل الى الشك في أن ما لا يوجد خير منه فلا بد بالضرورة أن يكون هو نفسه خيرا ، ولا بد أن يتحقق الخير الأكمل فيه . اذ لو كان الأمر على غير ذلك لما كان الله سيد الأشياء جميعا . وقد قلت لك من قبل ان الخير الكامل هو السعادة الكاملة ، فلا بد اذن أن تكون السعادة الكاملة متحققة في الله . ولكن هذه السعادة ليست شيئا غريبا عن ذاته ، تلقاه من الطبيعة أو من شيء خارجي ، والا كان المعطى أكمل من المتلقى ، والفرع أفضل من الاصل ، وذلك يخالف ما سلمنا به من أن الله هو أسمى الموجودات . واذا كنت قد اعترفت بأن الخير الأسمى هو السعادة ، فلا بد أن تعترف كذلك بأن الله هو السعادة .

الآن قد عرفت أنه لا يمكن أن يكون هناك خيران مختلفان كل منهما متناه في الكمال ، والالزام أن يكون احدهما أكمل من الاخر ، واستحال عليهما معا أن يوصفا بالكمال المطلق . واذن فلا بد من التسليم في آخر الأمر بان السعادة الكاملة هي والالوهيه الكاملة شيء واحد . ولنستعن الان بنوع من الاستدلال الذي يلجأ اليه الرياضيون . فلما كان الناس يصبحون سعداء حين يبلغون السعادة ، وكانت السعادة هي الالوهية ، فمن الواضح أنهم يصلون الى السعادة حين يصلون الى الالوهية ، كما يصبحون عدلين حين يصلون الى العدل ، وحكماء حين يبلغون الحكمة . ومن الواضح أيضا أنهم يصبحون آلهة حين يصلون الى الألوهية ، وأن السعيد منهم لا بد أن يصبح الها ، أعني أن يشارك في الألوهية بقدر ما تسمح به طاقة البشر ، لأن الاله نفسه لا بد أن يكون واحدا .

ولكن السعادة الكاملة هي في الوقت نفسه الاكتفاء الكامل والقوة الكاملة ، وهي كذلك الشرف والمجد واللذة ، وكلها تتجه الى الخير الذي هو قمتها وتاجها . فالناس تسعى الى الاكتفاء لأنه خير ، كما تسعى الى القوة والشرف والمجد لأنها تعتبرها خيرا ، وتعد نفسها بالفرح والرضا من ورائها . فالرغبات جميعا تلتقي في الخير ، لأن ما ليس خيرا لا يمكن أن يرغب أحد فيه ، واذا كان الناس في بعض الأحيان يتوقون الى ما ليس خيرا ، فلاعتقادهم الخاطىء أنه خير . واذا كان الناس يسعون الى هذا الشيء أو ذاك

لأنه خير ، فالأولى أن يقال ان سعيهم الحق انما يتجه الى الخير نفسه الذى يرغبون من اجله فى هذا الخير الجزئى أو ذاك • ولما كان الخير والسعادة شيئا واحدا كما اتفقنا ، وكان الله والسعادة الحقة شيئا واحدا كذلك ، فلا بد أن ننتهى من ذلك الى ان جوهر الله يكمن فى الخير نفسه لا فى شىء آخر سواه • ان كل ما هو موجود فهو يسعى الى الوحدة • الوحدة والخير شىء واحد ، فكل موجود يسعى اذن الى الخير• وقد بينت لك أن السعى الى هذا الخير الجزئى أو ذاك لا يمكن أن يؤدى الى السعادة الكاملة ، فلا بد اذن من التسليم بأن الموجودات جميعا تسعى الى الخير الأسمى ، أعنى السعادة الكاملة• هذا الخير الأسمى هو الله الذى يدبر الكون ، ويضفى الوحدة على أجزائه المختلفة المتنافرة • وهو فى سبيل ذلك لا يحتاج الى مساعدة من الخارج ، والا ما كان مكتفيا بذاته • ولقد عرفنا أن الله هو الخير ، ولا بد الآن أن نعرف أنه يدبر العالم بالخير ، ما دام يدبره بنفسه ، وأن كل من يسعى الى الخير فلابد أنه يسعى فى الوقت نفسه الى الله •

قالت الفلسفة هذا الكلام فى هدوء واتزان يليق بجلالها وجدها ، فهتف بها السجين : «أنت يا أيتها الهادية الى النور الحق ! لقد ذكرتنى كلماتك الالهية المبينة بما أنسانيه الظلم ، وكنت من قبل أعرفه حق المعرفة • فلتعلمى الآن أن علة همى وحزنى أن أرى الشر ممكنا فى عالم يدبره الله خيّر ، وأن أجد هذا الشر يسير فى طريقه بغير عقاب ، بينما الفضيلة تبقى بغير جزاء، لا بل يدوسها الأشرار بأقدامهم • فهل لك أن تخلصينى من عجبى ودهشتى ؟ » •

وأجابته الفلسفة قائلة: «انك لو تأملت حق التأمل فيما انتهينا اليه معا ، لعرفت ان الأخيار دائما اقوياء ، والاشرار عاجزون ، وان الرذيلة لا تعدم الجزاء ، ولا الفضيلة تعدم المكافاة ، وان الطيبين ينعمون بالسعادة فى اخر المطاف ، والمفسدين يتعذبون بالشقاء • لقد عرفت معى أين تكون السعادة ، وبقى على أن أهديك الى طريق العودة الى الوطن الحق ، وامنح روحك جناحين ترتفع بهما الى الاعالى ، فتهتف قائلا : « هذا هو وطنى ! لقد أتيت منه وسأبقى فيه ! » عليك أولا أن تعلم أن الأخيار يملكون القوة وأن الأشرار ضعفاء عاجزون • ولكى أثبت لك هذا أقول ان النجاح فى كل عمل انسانى يقوم على شيئين : الارادة والقوة ، اذا غاب أحدهما فشل العمل فى تحقيق ما يريد • فان غابت الارادة لم تجد أحدا يتجه الى ما يريد ، وان نقصت القوة كانت كل ارادة هباء • وكل من يعمل عملا فهو قادر عليه، ومن لا يقدر عليه لا يعمله •

ولكن هل تذكر الآن أن السعادة هى غاية كل فعل انسانى • وان السعادة هى الخير نفسه، ومن يسعى الى السعادة يسعى الى الخير ، يتفق فى ذلك الأخيار والأشرار على السواء ؟ وهل لديك شك فى أن من يبلغ الخير يصبح خيّرا ، وأن الأشرار الذين يصلون اليه لا يمكن أن يظلوا أشرارا ؟ واذا كان كلاهما يسعى الى الخير ، فيبلغه الأخيار ويعجز عنه الأشرار ، ألا يتضح من ذلك أن أولئك أقوياء وهؤلاء لايملكون القوة ؟ ان الخير الأسمى ماثل أمام الأخيار والأشرار ، يسعى اليه الأولون بما فطروا عليه من استعداد طبيعى لممارسة الفضيلة، بينما يحاول الأشرار أن يبلغوه عن طريق شهواتهم ، أغنى

عن غير الطريق الذي رسمته الطبيعة لممارسة الأفعال • ألا ترى مدى ضعف أصحاب [illegible] له، هؤلاء الذين لايملكون القدرة على بلوغ ما تقودهم اليه الفطرة ، لا بل تدفعهم الطبيعة اليه ؟ واذا عرفت أن الخير الأسمى هو آخر ما يمكن أن يسعى اليه الانسان ، الا توافقنى على ان من يصل اليه هو اقوى الناس واعظمهم ارادة ؟ وان من يعرف طريق الفضيلة ويتنكبه الى طريق الرذيلة هو أضعفهم وأشدهم عجزا ؟ لا بل تستطيع ان تقول ان من يتعامون عن الهدف الوحيد لكل ما هو موجود ، لا يثبتون عجزهم فحسب ، بل يثبتون كذلك عدم وجودهم • وقد يدهشك أن أصف الأشرار ، وهم أغلبية الناس ، بانهم غير موجودين • ذلك أننى لا انكر انهم أشرار ، ولكننى أنكر أنهم موجودون ، لاننى أحب أن أحتفظ بهذه الصفة لكل ما يحتفظ على طبيعته ، أعنى لكل ما يسعى الى الخير • قد تحتج بقولك ان الأشرار يملكون مع ذلك الغلبة والبأس • ولست أنكر ذلك ، ولكننى أراه صادرا عن الضعف لا عن القوة ، كما أرى أنهم لا يأتون الشر الا لعجزهم عن فعل الخير ، ولما كان الشر عدما كما اتفقنا من قبل ، وكان لا يسعهم الا اقترافه ، فهم فى الحقيقة لا يقدرون على شىء ، أعنى لا يقدرون الا على العدم • فالقدرة على فعل الشر ليست فى الواقع الا ضعفا ، لأن القدرة الحقيقية تكمن فى فعل الخير والسعى الى قمة القوة والسعادة جميعا ، ألا وهو الخير الأسمى • وما من جزاء للخيرين أعظم من الخير نفسه • فالخير هو السعادة • والسعداء الحقيقيون هم « الالهيون » • فبقدر ما يكف الانسان عن فعل الخير ، بقدر ما يكف عن الوجود نفسه ، وبقدر ما يشارك فى الخير ، تزداد مشاركته فى الكمال الالهى •

***

يكفى أن الله ، وهو خالق الاشياء جميعا ، ينضم كل شىء حين يوجهه الى الخير ، وانه يرضيه أن يتشبه به المخلوق بقدر طاقته • اما الشر الذى يحزنك أمره ، فلو دققت النظر وحاولت ان تراه بمنظار العناية الالهية ما وجدت له أثرا على الأرض ولعرفت أن كل ما يصيب الانسان من قدر فهو خير ، سواء فى ذلك أكان عقابا للمسىء أو جزاء للمحسن •

أنت يا من سرت قدما على طريق الفضيلة • ولا تكف عن صراع القدر ، حتى لا تخذلك المصائب أو تفسدك الملذات • ومهما يبدلك القدر قسيا فسوف ينفعك فى الحالين : ان عاقبك عرفت العدل ، وان كافأك بلغت الخير • بذلك تعود الى وطنك المضىء الذى حدثتك عنه ، وتجد العزاء من هذا الظلم الذى حاق بك ، لا بل ستعرف أنه ليس ظلما ذلك الذى ارتفع بك الى العدل ، وسما بك فوق الشر الموقوت الى سماء الخير الأبدى •

[illegible]

[illegible stamp]